الفصل الأول

تاريخ المستوطنات اليهودية في الحجاز

obeikandl.com

obeikandl.com

تاريـــخ المستوطنـــات اليهـوديـــة فـــي الحجـــاز

قبل أن نبحث فى تاريخ المستوطنات اليهودية فى الحجاز قد يكون من المهم معرفة من هم اليهود ؟ ولماذا سموا كذلك ؟ وما الفرق بين الصفات : يهودى ، وعبرى ، وإسرائيلى ؟ ثم بعد ذلك نبين كيف نشأت العلاقة بين العرب واليهود ، وكيف تطورت على مدى التاريخ ؛ لما لذلك من علاقة بموضوع المستوطنات اليهودية .

العبرانيون ، اليهود ، بنو إسرائيل

يزعم اليهود ـــ وبجرأة عجيبة اعتادوها ـــ أنهم نسل من أسموهم بالعبرانيين وهم فرع آرامى من الساميين . وقد اختلف فى أصل الكلمة « عبرى » فقال البعض إنها نسبة إلى « عابر » أو « عبر » ، وهو اسم الجد الأعلى لإبراهيم [1] عليه السلام ، إنه لذلك أسمته التوراة إبراهيم العبرى . فقد جاء فى سفر التكوين [2] أنه لما تم أسر جماعة لوط

---

(١) أبرهام معناها : الأب ذو المقام العالى أو الرفيع

(٢) الإصحاح ١٤ فقرة ١٣

« أتى من نجا وأخبر إبرام العبرانى » بوقوع لوط فى الأسر . وفى سفر الخروج [٣] قال موسى وهارون لفرعون « إله العبرانيين قد التقانا » . وتكرر ذلك فى الإصحاح السابع فقرة ١٦ عندما قال موسى لفرعون « أنا الرب إله العبرانيين أرسلنى إليك قائلا أطلق شعبى ليعبدونى فى البرية » . كذلك تكرر ذكر العبرانيين فى مواقع أخرى .

وهكذا يكون وصف العبرى الذى أطلق على إبراهيم قد انتقل إلى نسله أو إن شئنا الدقة إلى نسل حفيده يعقوب دون بقية نسله من أبنائه وأحفاده الآخرين ، وذلك على الرغم مما هو معروف من أن اسم الجد الأعلى أو صفته تنتقل إلى كل أحفاده ونسله دون تمييز .

ولقد كان لإبراهيم عليه السلام أبناء آخرون غير إسحاق [٤] وأحفاد آخرون غير يعقوب [٥] بن إسحاق ، فالابن الأكبر لإبراهيم هو إسماعيل [٦] الذى ولدته له السيدة هاجر . كذلك كان له أبناء آخرون ، حسب ماجاء فى التوراة ذاتها : ففى سفر التكوين أن إبراهيم عليه السلام تزوج بعد وفاة السيدة سارة بامرأة اسمها « قطورة » ولدت له ستة أبناء ذكور ، هم زمران ، ويقشان ، ومدان ، ومديان ، ويشباق ، وشوحا . وأن هؤلاء الأبناء تزوجوا وأنجبوا ، فولد ليقشان شبا ودان ، ولمديان ولد عنية وعفر وحنوك وابيداع والدعه . كذلك فإن دان بن بقشان تزوج وأنجب أشوريم ولطوشيم ولأميم . ومعنى هذا أن بنى الأعمام ليسوا أبناء إسماعيل

---

(٣) الإصحاح خمسة فقرة ٣ .

(٤) معناها : ليبتسم إيل

(٥) معناها : ليحفظ إيل

(٦) معناها : ليسمع إيل

وإسحاق فقط ، بل وأبناء هؤلاء الستة أيضا فهم إخوة لإسماعيل وإسحاق .

كذلك فإن التوراة أيضا ذكرت أنه كان لإسحاق ابن آخر هو « عيسو » توءم يعقوب الذى أنجب عددا كبيرا من الأبناء . فلماذا استأثر أبناء يعقوب وأحفاده دون هؤلاء جميعا بوصف العبرانيين ، وهو اسم الجد الأعلى لإبراهيم ، كما يقولون

وهناك رأى آخر يذهب إلى أن « عبرانيين » هو وصف أطلق على عشيرة إبراهيم التى هاجرت معه من موطنهم فى « أور » الكلدانيين ، فعبرت الفرات فى طريقها إلى « كنعان » فى فلسطين ، وأنه فى هذه الأثناء تعرضت لأخطار أنجاها الله منها ، ثم تلا ذلك إعطاؤه العهد لإبراهيم . أى أنهم سموا « عبرانيين » لأنهم عبروا الفرات .

وهذا التفسير لأصل كلمة « عبرانيين » ينطبق عليه ماقلناه فى شأن التفسير السابق بل وأكثر ؛ فطبقا للتفسير الأخير لا يكون أبناء وأحفاد ، بل ونسل إبراهيم بصفة عامة هم « العبرانيون » ، بل كل العشيرة أو القبيلة التى كانت معه عند هجرته من « أور » الكلدانيين ، وكذلك أولادهم ونسلهم جميعا . فلا ندرى لماذا استأثر نسل يعقوب بهذا الاسم دون الجميع ؟

ليس ذلك وحسب ، بل إن من يسمون بالعبرانيين ، الذين عبروا مع إبراهيم عليه السلام لما دخلوا « كنعان » تزاوجوا مع من كان يقيم بها من العناصر الأخرى .

وبعد ذلك لما فتح بنو إسرائيل « كنعان » بعد خروجهم من مصر

انضم إليهم أقاربهم الذين كانوا قد بقوا فى البلاد ولم يهاجروا إلى مصر .

وهكذا انضم الذين لم يعبروا إلى الذين عبروا ، فكانت النتيجة هى مايسمى بالشعب العبرانى الذى امتزجت فيه عروق مختلفة ومتنوعة تضم عناصر سامية وحورية وحثية وغير ذلك من العناصر غير السامية .

أما اللغة المسماة بالعبرية ، فهى ليست اللغة الأصلية للقبيلة التى هاجرت مع ابراهيم من بلاد الرافدين ، فتلك كانت لهجتها سامية قديمة ، أما اللغة التى اتخذها العبرانيون فهى الكنعانية . وقد لوحظ أن اللغة الفينيقية القديمة واللغة العبرانية القديمة ، أى التى استعارها العبرانيون ، كما هى مدونة فى العهد القديم ـــ لاتختلفان إلا من حيث اللهجة . وتعتبر اللغة الكنعانية من بين مظاهر حضارية كنعانية أخرى كثيرة ورثها العبرانيون .

أما الرأى الأخير ، وهو أضعف الآراء ، فيذهب إلى أن « العبرانيين » هم أنفسهم « الخبيرو » الذين ورد ذكرهم فى ألواح تل العمارنة على أنهم غزوا مصر فى القرن الخامس عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد . ولكن الخبيرو كانوا شعبا شبه رعوى ، كما أن الكلمة « خبيرو » لاتدل على جماعة عرقية أو لغوية ، فضلا عن أن مجيئهم إلى مصر كان أثناء وجود أبناء يعقوب وأحفاده فيها ، ولو أن الخبيرو كانوا آراميين أيضا .

وبالنسبة لكلمة (يهود) ، فإن مصدرها هو إقليم يهودا ، فسمى من كان يقيم به من نسل يعقوب باليهود نسبة إليه ، وإن كان الإقليم قد اكتسب هذا الاسم من أبناء وأحفاد يهوذا بن يعقوب الذين أقاموا فيه . ولم يظهر هذا الاسم فى الاستعمال إلا بعد أن تم نفى اليهود إلى بابل عام ٥٨٧ ق.م فقد سمى المنفيون باليهود نسبة إلى إقليمهم ، على الرغم من أن كثيرين ممن ينتمون إلى بقية الأسباط كانوا يقيمون معهم ، فضلا عن آخرين من سكان البلاد الأصليين .

أما كلمة « إسرائيل » فهى الاسم الذى أطلقه الله على يعقوب عليه السلام . ومعناها ليحفظ إيل ، وبذلك أصبح أبناء وأحفاد إسرائيل (يعقوب) يدعون بنى إسرائيل . وهم الذين ولدوا بمصر فى الفترة الواقعة بين مجىء يعقوب وأبنائه وخروج موسى وأتباعه .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس هناك أى تطابق بين الصفات الثلاث : عبرى ، ويهودى ، وإسرائيلى . فليس كل من عبروا مع إبراهيم عليه السلام يهودا أو إسرائيليين ، وليس كل اليهود أو الإسرائيليين عبريين ، وإنما هى ألاعيب وحِيَل من بنى إسرائيل أرادوا بها أن يجعلوا لأنفسهم عرقا ووطنا ودينا .

علاقة العرب باليهود

كما هو معروف ، فإن العرب واليهود أحفاد جد واحد هو إبراهيم عليه السلام فهم ــ إذن ــ أبناء عمومة ، فالجد المباشر لليهود هو إسحاق أخو إسماعيل جد العرب . وهو فى نفس الوقت عم يعقوب (إسرائيل) الذى أطلق اسمه على اليهود ليصبحوا بنى إسرائيل وإن

كانت هناك تفصيلات أخرى تتعلق بكلا الفريقين ، أى العرب واليهود ، منها أن بداية العرب لم تكن بإسماعيل وأبنائه ، فقد كان للعرب وجود بالجزيرة العربية قبل أن يذهب إليها إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليهما السلام وأمه السيدة هاجر ، حيث شب عن الطوق وأصبح شابا فتزوج منهم وأنجب .

كما أن بداية اليهود لم تكن بإسحاق أو بيعقوب عليهما السلام ، حيث إن كليهما تزوج من الجماعات التى كانت تقيم فى الشام والعراق ، وهم بالقطع لم يكونوا إسرائيليين أو يهودا .

وعلى الرغم مما يقوله العرب من أن إسماعيل عليه السلام تزوج عربية ، حيث كان يقيم بالقرب من مكة ، فإن اليهود يزعمون أنه لما بلغ الحلم تزوج من مصر ، وهو ما ذكرته التوراة (٧): « فكبر وسكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » . وهذا كذب محض ؛ فإسماعيل عليه السلام لم يقم فى برية فاران التى توجد فى شبه جزيرة سيناء ، وإنما أقام فى واد غير ذى زرع ، حيث توجد الكعبة فى مكة .

والمثير للدهشة حقا هو أن التوراة كانت قد ذكرت حين حديثها عن مفارقة السيدة هاجر وابنها للمكان الذى كان يقيم فيه إبراهيم عليه السلام والسيدة سارة ــ أنها ، أى هاجر تاهت مع ابنها فى برية بئر

---

(٧) تكوين ، الإصحاح ٢١ ، فقـرة ٢٠

سبع ، لا فى برية فاران : « فبكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفها ، فمضت وتاهت فى برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس ؛ لأنها قالت : لا أنظر موت الولد ، فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت ، فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : مالك ياهاجر ؟ لاتخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام وشدى يدك به ؛ لأنى سأجعله أمة عظيمة »[٨] ويبدو أن الذين حرفوا التوراة بإضافة مثل هذا الكلام إليها نسوا أنه سبق لهم أن قالوا ـ وفى نفس السفر ـ إن إسماعيل حين ختنه أبوه إبراهيم كان فى الثالثة عشرة من عمره : « وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته ، فى ذلك اليوم عينه ختن إبرهيم إسمعيل ابنه ، وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه[٩] » .

وهكذا يكون إسماعيل قد بلغ الرابعة عشرة من العمر حين أخذته أمه ورحلت ، حيث إن ذلك حدث بعد ولادة إسحاق . فكيف بالله تطرح هاجر صبيا مراهقا تحت إحدى الأشجار ؟ وكيف تحمله وهو الذى لايقل عنها طولا ؟ بل كيف يبكى أصلا ومثله فى الريف أو فى البادية يعمل ويكد ويرعى أمه وإخوته ؟ إذا كان هذا غير صحيح ،

---

(٨) تكوين ، الإصحاح ٢١ ، الفقرات من ١٤ إلى ١٨

(٩) تكوين ، الإصحاح ١٧ ، الفقرات من ٢٥ إلى ٢٧

فمن باب أولى ماذكرته التوراة من أن إسماعيل عاش فى برية فاران فى سيناء وتزوج وأنجب فيها أولاده الاثنى عشر ذكرا ، فالثابت أن إسماعيل أقام بالقرب من مكة وتزوج من العرب وأنجب وأنه جد مايسمى بالعرب المستعربة ، وليس مايمنع أن يكون قد تزوج فيما بعد بامرأة من مصر بلد أمه التى قد تكون استأنفت صلتها بأهلها وزارتهم وزاروها ، فقد كانت القوافل رائحة غادية بين مصر وما جاورها من بلاد .

ولقد أطلق اليهود على نسل إسماعيل اسم الإسماعيلية ، كما سنرى فيما بعد ، أما هم فلم يعرفوا باسم بنى إسرائيل إلا بعد أن أطلق الله هذا الاسم على يعقوب كما بينا ، ونحن نعرف القصة التى تصف غدر أبناء يعقوب « إسرائيل » بأخيهم يوسف وكيف ألقوه فى البئر ، وما انتهى إليه الأمر ببيعه فى مصر حيث اشتراه « العزيز » ، وما وقع له مع امرأة هذا العزيز ، وأدى إلى سجنه ، ثم تفسيره للحلم الذى رآه الملك إلى أن تعرف على إخوته وتم الصلح بينه وبينهم ، ومجىء يعقوب وأسرته إلى مصر حيث أقاموا بها .

ويقال إن هذه الأحداث وقعت أثناء حكم الهكسوس لمصر ، وهو الحكم الذى يوجد اختلاف بين العلماء بشأن المدة التى استغرقها : فهناك من يقولون : إنه دام أربعة قرون ، وهناك من يقولون إنه دام قرنين أو ثلاثة ، ويحددونه لذلك بالحقبة من القرن ١٨ إلى القرن ١٦ قبل الميلاد . فربما يكون مجيئهم فى أولها أو فى منتصفها ، فلم يعثر بعد فى آثار المصريين القدماء على مايشير إلى هذه الأحداث ، وإن كان لايوجد أدنى شك فى حدوثها .

ولقد كان عدد الذين دخلوا مصر مع يعقوب عليه السلام لايزيد أى حال عن سبعين فردا، بما فيهم أبناؤه الإحدى عشر وزوجاتهم وآحفاده ، وبعض الأتباع كالخدم وغيرهم . ففى التوراة : « جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون »[١٠]

وفى القرن الثالث عشر قبل الميلاد خرج بنو إسرائيل من مصر تحت قيادة موسى عليه السلام ، أى أنهم أقاموا فى مصر أربعة قرون ، وفى التوراة[١١] « **وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت أربعمائة سنة وثلاثين سنة** » .

وفيما يتعلق بعدد من خرجوا مع موسى زعم اليهود أن عددهم كان أكثر من ستمائة ألف رجل ؛ ففى التوراة :[١٢] « **فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد ، وصعد معهم لفيف كثير أيضا مع غنم وبقر ومواش وافرة جدا** » . ويضاف إلى هؤلاء (٢٢٠٠٠) هم ذكور سبط لاوى الذين لم يدخلوا فى العدد .

وهذا معناه أن العدد الإجمالى لمن خرجوا مع موسى يزيد على المليون ونصف المليون ، وهو ما لا يمكن لعاقل أن يتصوره ؛ إذ كيف تسنى لموسى قيادة هذا العدد الهائل من البشر والخروج بهم من مصر ؟ وكيف عبر بهم البحر حين انشق ؟ وكم من الوقت دام

---

١٠ ــ تكوين ، الإصحاح ٤٦ ، فقرة ٢٧ .
١١ ــ خروج ، الإصحاح ١٢ ، فقرة ٤٠ .
١٢ ــ خروج ، الإصحاح ١٢ فقرة ٣٧ ، ٣٨ .

انشقاق البحر ليمر هذا العدد الهائل، خاصة مع ماعرف من أن اليهود قد حملوا معهم ممتلكاتهم التى وضعوها على عربات ثقيلة تجرها الثيران ، ولم يتركوا شيئا للمصريين ، حتى البط والأوز ، وكل مايحتوى البيت ، حملوه معهم .

ولقد ذكرت التوراة [١٣] أن عبور البحر استغرق بضع ساعات هى مدة الليل ، « وانتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم ، فدخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل ، وصار السحاب والظلام وأضاء الليل ، فلم يقترب هذا إلى ذاك كل الليل ، ومد موسى يده إلى البحر ، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل ، وجعل البحر يابسة وانشق الماء ، فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم ، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر ، وكان فى هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين فى عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين ... فقال الرب لموسى مُدَّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين ، على مركباتهم وفرسانهم ، فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة » .

فهل يتصور عاقل أن مليوناً ونصف المليون من البشر ، مع كل ممتلكاتهم يمكن أن يعبروا البحر من ضفة إلى ضفة فى مدة لاتزيد على

---

(١٣) خروج ، الإصحاح ١٤ ، الفقرات من ٢٠ إلى ٢٧ .

تسع ساعات ، أو حتى اثنتى عشرة ساعة ؟ طبعا مستحيل . ولما كنا لانشك فى واقعة انشقاق البحر وعبور موسى ومن كانوا معه ، فلم يبق إلا أن نشك فى العدد الذى ذكرته التوراة ، خاصة بعد أن أصابها التحريف الواضح بسبب عبث اليهود بها .

وقد اعترض كاتب دائرة المعارف الأمريكية على هذا التقدير المبالغ فيه جدا وقال : إنه فى أفضل الحالات ، فإن الذين خرجوا من مصر مع موسى ليسوا إلا عدداً قليلا من القبائل أو العشائر ، وإن النظرية المعقولة ، والتى تبدو مقبولة أكثر من غيرها ، هى التى تقول : إن الذين خرجوا من مصرهم نسل يوسف ثانى أصغر أبناء يعقوب . أى أن من رَأْي الكاتب أن بقية إخوة يوسف لم يقيموا بمصر ، وبالتالى لم تكن لهم ذرية فيها ، وإنما ظلوا يقيمون حيث كانوا .

ولكن الصحيح هو ماذكره القرآن الكريم من أن الخارجين من مصر كان منهم ذرية الأسباط كلهم (يوسف وإخوته) وهم اثنا عشر سبطا ؛ ولذلك فإنهم لما أصابهم العطش وهم فى سيناء فجَّر لهم الله اثنتى عشرة عينا ، لكل سبط منهم عين . حيث يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١٤) فلو أن الذين خرجوا هم أحفاد يوسف فقط ماكانت هناك حاجة إلى

(١٤) البقـرة ٦٠

تفجير هذا العدد من العيون الذى كان السبب فيه منع الخلاف بين اليهود ودرء الصدام بين أحفاد كل سبط .

ويرى كاتب دائرة المعارف الأمريكية أن العدد الإجمالى لمن خرجوا من مصر مع موسى لم يكن يزيد على بضعة آلاف ؛ حيث إنه على الرغم من أن بنى إسرائيل مكثوا فى مصر حوالى أربعة قرون ، مما يحتمل معه أن يصل عددهم إلى المليون أو قريب منه ، غير أنه بالنظر إلى أنهم كانوا مجتمعا مغلقا يتزوج أفراده من داخله ، فقد أدى هذا إلى انخفاض معدل الإنجاب لديهم وضعف نسلهم مما رفع من معدل الوفيات بين أطفالهم . وهو ما لوحظ أيضا لدى يهود الشتات فى القرون الأخيرة ، وهم اليهود الذين أقاموا فى الدول المختلفة داخل مايسمى بالـ (جيتو) واستمروا فى التزواج فيما بينهم . ولكن منذ أن أقام اليهود دولتهم فى فلسطين السليبة أخذ معدل المواليد يزيد بشكل ملحوظ ، وأصبحت هناك أسر لديها عشرة أبناء ، بل واثنا عشر ابنا ، وهو ما لم نكن نسمع به من قبل .

كذلك فإنهم لو كانوا ــ كما زعموا ــ أكثر من مليون ونصف مليون يهودى خرجوا من مصر ، لكان بمقدور فرعون وجيشه أن يقضوا على معظمهم قبل أن يتمكنوا من عبور البحر حين انشق لهم . وكان ذلك ، كما ذكرنا ، فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، حيث إنه يعترف الآن بصفة عامة أن موسى عليه السلام عاش فى الفترة بين ١٣٥٠ و ١٢٥٠ قبل الميلاد .

وهكذا ظهر بنو إسرائيل بعد أن خرجوا من مصر ، ولم يكن لهم

إلا وجود لا يكاد يلحظه أحد ، قبل ذلك بأكثر من أربعمائة سنة . وكان أبناء عمومتهم قد استقروا هنا وهناك : أبناء عمهم إسماعيل فى الحجاز ، وأبناء عيسو عمهم المباشر ، توءم أبيهم فى المنطقة التى تجاور الحجاز من الضفة الشرقية للأردن .

وليس معروفا على وجه التحديد ما إذا كانت هناك علاقات بين إسحاق وأبنائه وأحفاده من ناحية ، وبين إسماعيل وأبنائه وأحفاده من ناحية أخرى أم لا ؟ . وإذا كانت هذه العلاقات قد وجدت فماذا كانت طبيعتها ؟ هل كانت وُدِّيَّةً أو عدائية ؟ . فالتوراة وهى المصدر الوحيد فى هذا الشأن لا تذكر شيئا عن إسماعيل بعد مجيئه ليشترك مع أخيه إسحاق فى دفن أبيهما إبراهيم عليه السلام ، فهى تقول : « ودفنه إسحق وإسمعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى أمام ممرا [١٥] » .

ولقد كان هذا هو اللقاء الأخير بين الأخوين على مايبدو ؛ حيث لم تشر التوراة إلى أن ذلك قد حدث . ولكنها ذكرت أن الابن البكر لإسحاق وهو عيسو توءم يعقوب ذهب إلى عمه إسماعيل وتزوج ابنته « محله » [١٦] التى غيرت التوراة اسمها فى موضع آخر [١٧] فجعلته « بسمة » فقالت « بسمة بنت إسماعيل أخت نبايوت » .

---

(١٥) تكوين ، الإصحاح ٢٥ فقرة ٩

وبغض النظر عن هذه الأخطاء الفاحشة ممن عبثوا بالتوراة ، فإن معنى ماذكرته أنه كانت توجد صلات بين عيسو وعمه إسماعيل . وربما يكون عيسو قد حرص على الاتصال بعمه بدافع من العاطفة ، ولكن لا شك أيضا أنه كان لموقف أبيه منه وتفضيله ليعقوب عليه ، حيث اختصه ببركته دونه ــ أثر فى تصرفه على هذا النحو حيال عمه الذى كان هو الآخر قد حرم من الإقامة مع أبيه ومن وراثته ، على الرغم من أنه كان الأكبر . ولكن لأنه كان ابن جارية فقد استبعد . وهكذا جمع الاضطهاد بين عيسو وعمه إسماعيل عليه السلام . وإن كان إسماعيل نفسه لم يساوره هذا الإحساس أبدا ؛ فقد نظر إلى أمر إبعاده هو وأمه إلى ذلك المكان المقفر باعتباره مما لامناص من تنفيذه ؛ لأنه صادر من الله ، تماما كما نظر إلى الأمر الصادر بذبحه والذى امتثل له تماما .

ولكن يبدو من عدم وجود علاقات بين أبناء يعقوب وكل من أبناء عمهم عيسو وعم أبيهم إسماعيل ، أنهم كانوا يعانون من إحساس كاذب بالتميز عليهم جميعا ، على الرغم من أن أبناء عيسو ــ على حد ماذكرته التوراة ــ صاروا ملوكا وأثرياء ، وذلك على خلاف ماحدث لأبناء يعقوب الذين عانوا الكثير ، وهو مايمكن أن يكون سببا فى حقدهم على بنى عمومتهم ، ولعلنا نذكر حقدهم وغيرتهم من أخيهم يوسف عليه السلام وتآمرهم عليه ، فمن باب أولى أبناء عمهم وعم أبيهم .

وبطبيعة الحال ، فإن انتقال يعقوب عليه السلام ومعه أبناؤه

للعيش فى مصر يحتمل أن يكون قد أدى إلى ضعف الصلات بأبناء إسماعيل ، أو انقطاعها ، بل يبدو أنها كانت مقطوعة قبل ذلك . ففيما ذكرته التوراة من أن قافلة الإسماعيليين هى التى ابتاعت يوسف من إخوته يظهر أن الفريقين كانا يتعاملان مع بعضهما البعض كغرباء ، فبعد أن ألقى أبناء يعقوب بأخيهم فى البئر « ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر [١٨] وبعد هذه الواقعة لم يرد ذكر للإسماعيليين فى التوراة ، حيث انقضت أربعة قرون أو أكثر على بنى إسرائيل فى مصر ، ثم خرجوا تحت قيادة موسى عليه السلام ليبدأ احتكاكهم من جديد بالناس خارج مصر ، ونقرأ فى التوراة أنهم اشتبكوا فى حرب مع « العماليق » « وأتى عماليق وحارب إسرائيل فى ريفيديم ، فقال موسى ليشوع انتخب لنا رجالا واخرج حارب عماليق ، وغداً أقف أنا على رأس التلة وعصا الله فى يدى ، ففعل يشوع كما قال موسى ليحارب عماليق ، ولما هزم يشوع عماليق فقال الرب لموسى اكتب هذا تذكارا فى الكتاب وضعه فى مسامع يشوع فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء ، فبنى له موسى مذبحا ودعا اسمه يهوه نسى ، وقال إن البلد على كرسى الرب ، للرب حرب مع عماليق من دور إلى دور [١٩] » .

---

(١٨) تكوين ، الإصحاح ٣٧ ، الفقرة ٢٥

(١٩) الخروج ، إصحاح ١٧ ، فقرة ٨ وما يليها

وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن العماليق هم عرب . فجورجى زيدان يقول : إن العماليق هم أصل سائر العرب البائدة ، أو هو اسم يشملهم جميعا . ويقول : إن المؤرخين يريدون بالعمالقة قد ماء العرب ، وخصوصا أهل شمال الحجاز مما يلى جزيرة سيناء .

ويقول الدكتور حسين مؤنس فى تعليقه على جورجى زيدان : إن العماليق كانوا على أصح الآراء يسكنون جنوبى فلسطين ، ومن هنا كان العداء الشديد بينهم وبين العبرانيين ، وهذا يفسر لنا سر عداوة التوراة لهم ، وبسبب هذه العداوة كثر تردد اسم العماليق فى التوراة ، ورويت عنهم القصص ، وبالغ الناس فى أوصاف أجسامهم وضخامتها ، وجعلوهم أقدم شعوب الأرض ، وكانت لهم غارات على ماجاورهم من أراضى الرافدين ومصر ، واستقر بعضهم فيها .

ومما ورد فى التوراة توصية ، أو أمر من الله لموسى « اذكر ما فعله بك عماليق فى الطريق عند خروجك من مصر ، كيف لاقاك فى الطريق وقطع من مؤخرك كل المستضعفين وراءك وأنت كليل ومتعب ولم يخف الله ، فمتى أراحك الرب إلهك من جميع أعدائك حولك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك نصيبا لكى تمتلكها تمحو ذكر عماليق من تحت السماء ، لاتنس [٢٠] » . وفيما بعد أطلق اليهود

---

(٢٠) تثنية ، الإصحاح ٢٥ ، الفقرات من ١٧ إلى ١٩

على العرب أسماء أخرى منها بنو قيدار ، وقيدار هو أحد أبناء إسماعيل ، كما يقولون ، وبنو المشرق ، وغير ذلك مما سوف نصادفه أثناء الدراسة . وكان موقفهم منهم دائما عدائيا ، فهم إذا لم يتوعدوهم بالحرب والانتقام الشديد والإبادة ، تنبئوا لهم بالمصائب تحل بهم ، وبالغوا فى إظهار الشماتة فيهم إذا حلت بهم : ففى القرن السادس قبل الميلاد هاجم نبوخذ نصر الحجاز وهزم العرب ـــ بنى قيدار ـــ فى البادية ، وهذا الخبر جاء فى شكل نبوءة فى سفر ارميا على الوجه الآتى : « على قيدار وممالك حاصور التى ضربها نبوخذ نصر ملك بابل ، وهكذا قال الرب قوموا اصعدوا إلى قيدار ودمروا أبناء المشرق ، إنهم يأخذون أخبيتهم وغنمهم ويستولون على شققهم وجميع أدواتهم وإبلهم وينادون عليهم بالهول من كل جانب [٢١] » .

ظهور اليهود فى الجزيرة العربية

اختلفت الآراء فى شأن الوقت الذى ظهر فيه اليهود فى الجزيرة العربية ، وعلى وجه الخصوص فى المنطقة الممتدة من حدودها مع فلسطين إلى المدينة أو يثرب ، كما كانت تسمى قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . فهناك رأى يذهب إلى أنهم جاءوا إليها أيام موسى عليه السلام (القرن الثالث عشر) قبل الميلاد . ويورد ياقوت فى معجمه قصة تتحدث عن السبب الذى من أجله جاء اليهود إلى المدينة أيام موسى فيقول : إن السبب هو أن موسى بن عمران عليه السلام ، بعث إلى الكنعانيين حين أظهره الله تعالى على فرعون

(٢١) أرميا ، الإصحاح ٤٩ ، الفقرة ٢٨

فوطىء الشام وأهلك من كان بها منهم ، ثم بعث بعثا آخر إلى العماليق بالحجاز وأمر جنوده ألا يستبقوا أحدا ممن بلغ الحلم إلا من دخل فى دينه ، فقدموا عليهم فقاتلوهم ، فأظهرهم الله عليهم فقاتلوهم وقتلوا ملكهم الأرقم وأسروا ابنا له شابا جميلا كأحسن من رُئِيَ فى زمانه فضنوا به عن القتل وقالوا : نستحييه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم وقبض الله موسى قبل قدومهم ، فلما قربوا وسمع بنو إسرائيل بذلك تلقوهم وسألوهم عن أخبارهم ، فأخبروهم بما فتح الله عليهم ، قالوا : فما هذا الفتى الذى معكم ، فأخبروهم بقصته . فقالوا : إن هذه معصية منكم لمخالفتكم أمر نبيكم ، والله لا دخلتم علينا بلادنا أبدا ، فحالوا بينهم وبين الشام ، فقال ذلك الجيش : ما بلد إذ منعتم بلدكم خير لكم من البلد الذى فتحتموه وقتلتم أهله ، فارجعوا إليه ، فعادوا إليها فأقاموا بها ، فهذا كان أول سكنى اليهود الحجاز والمدينة ، ثم لحق بهم بعد ذلك بنو الكاهن بن هارون ، عليه السلام ، فكانت لهم الأموال والضياع بالسافلة ، والسافلة ماكان فى أسفل المدينة إلى أُحُد .

وهذه القصة من الإسرائيليات التى انتشرت فى كتب العرب بعد الإسلام ، دسها اليهود عليهم لكى يوهموهم بقدم وجودهم بالحجاز ، الذى يرجع إلى ماقبل هجرة الأوس والخزرج بأكثر من ثمانية عشر قرنا ، أى أنهم يقصدون أن يقولوا لهم : نحن هنا قبلكم . فما جاء فى التوراة ليس فيه شاب جميل ولا عودة للجيش إلى الحجاز .

أما الرأى الثانى فهو الذى يذهب إلى أن اليهود جاءوا إلى (يثرب) فى عهد « نبوخذ نصر » عقب إنزاله الهزيمة بمملكة يهودا عام ٥٨٦ قبل الميلاد وتدميره لهيكل سليمان عليه السلام . ففى ذلك الوقت نزح عدد كبير من اليهود إلى الجزيرة العربية حتى لا يقعوا فى أسر البابليين الذين نفوا الآلاف من اليهود إلى بابل فيما يسمى بالنفى البابلى .

وهناك رأى ثالث ، وهو الراجح ، يذهب إلى أن انتقال اليهود إلى الحجاز كان أثناء حكم الرومان لفلسطين ، وبعد ظهور المسيحية . ويذكر ياقوت قصة أخرى طريفة تتحدث عن السبب فى نزولهم المدينة ، وهو أن ملك الروم حين ظهر على بنى إسرائيل وملك الشام أراد أن يتزوج إحدى اليهوديات من أحفاد هارون ، وكان اليهود جريا على عادتهم لايزوجون بناتهم للنصارى ، فخافوا إن هم رفضوا أن ينكل الملك بهم ، فلجئوا إلى الحيلة . وذلك بأن قدموا له الهدايا ووجهوا إليه الدعوة لزيارتهم ، فلما ذهب إليهم فتكوا به وبمن معه ، ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز وأقاموا بها . وهذه خرافة أخرى من خرافات اليهود التى روجوا لها ليظهروا استعلاءهم على الشعوب الأخرى ، فى حين أن الحقيقة خلاف ذلك تماما ، فهم لم يتورعوا طيلة تاريخهم عن التضحية بشرف نسائهم من أجل بلوغ غاياتهم ، فقد خرجوا من بابل بعد نفيهم إليها بفضل مجهودات امرأة منهم شديدة الجمال قدموها للقائد الآشورى لتكون محظية له ، وهم الذين استغلوا الجنس فى التجسس على أعدائهم وأشاعوا الفساد والانحلال فى العالم كله ، ولو أنه صح أن ملكا رومانيا رغب فى الإصهار إليهم

لقدموا له بدل المرأة عشرات . وإنما أرادوا أن يقولوا للعرب : إننا رفضنا أن نزوج ابنتنا لملك كبير رومانى فمن باب أولى لانزوجكم بناتنا . ومع ذلك فإن فى هذه القصة جزءا صغيرا له صلة بالحقيقة وهو الجزء الخاص بزمن هجرتهم إلى الحجاز .

ذلك أنه لما أعلن اليهود التمرد على الرومان واشتبكوا معهم فى معارك انتهت بهزيمتهم ، أى هزيمة اليهود ، هرب عدد كبير منهم من وجه الرومان إلى الجزيرة العربية ، وكان ذلك فى القرنين الأول والثانى الميلاديين ، وعلى الرغم من أن بعض العلماء العرب ذكروا ذلك ، فإنهم استمروا فى ترديد أكاذيب اليهود ، فها هو الأصفهانى يقول : لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا فى الشام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل هاربين منهم إلى من بالحجاز لما غلبتهم الروم على الشام . وهو ماكان يقوله يهود بنو قريظة من أنهم ولوا هاربين من الشام يريدون الحجاز الذى فيه بنو إسرائيل ليسكنوا معهم ، يقصدون أنه كان بالحجاز يهود قبل الاضطهاد الرومانى ، كذلك زعموا أنهم لما غادروا الشام وجه ملك الروم فى طلبهم من يردهم ، فأعجزوا رسله وفاقوهم ، وانتهى الروم إلى « ثمد » بين الشام والحجاز فماتوا عنده عطشا ، فسمى ذلك الموقع ثمد الروم فهو معروف إلى ذلك اليوم ، كما يقول ياقوت .

والصحيح أن نزوح اليهود إلى الحجاز قد حدث مرتين : الأولى عام ٧٠م عندما شن « طيطس » الرومانى حربا على اليهود فى

فلسطين ، فاقتحم أروشليم وأعمل القتل والسلب والتدمير فيها حتى تركها قاعاصفصفا وقد ذكر المؤرخ اليهودى «يوسفيوس» أن عدد قتلى اليهود زاد على المليون بالإضافة إلى من أسرهم طيطوس ، والذين زاد عددهم على مائة ألف ، ويقول : إنه نزح عدد كبير من اليهود إلى قبرص ومصر والقيروان والحجاز ، ولم يبق منهم إلا شرذمة ضعيفة .

أما المرة الثانية فكانت عام ١٣٢ ميلادية فى عهد « هادريان » الذى كرر ماسبق أن فعله سلفه طيطوس . ويقول توماس أرنولد : إن هذا الإمبراطور نكل باليهود تنكيلا شديدا دفعهم إلى النزوح إلى الجزيرة العربية .

والملاحظ أنه لاتوجد فى المصادر اليهودية أية إشارة إلى ماكان يقوله يهود بنو النضير ، وإنما الذى ذكرته هذه المصادر أن اليهود ظهروا فى الحجاز بعد ميلاد المسيح . فقد جاء فى الموسوعة الإسلامية الميسرة أن التلمود يشير إلى أنه كان ببلاد العرب يهود فى القرون المبكرة من العصر المسيحى ، وأن هذا يعنى شمال بلاد العرب بصفة أساسية . كما أن عددهم كان كبيرا بدرجة ملحوظة .

وبطبيعة الحال ، فإن الطلائع الأولى لليهود الذين فروا من وجه الاضطهاد الرومانى لأول مرة أيام « طيطس » لم يندفعوا إلى عمق الحجاز ، من قبيل الحذر والحيطة ، فهم لا يدرون شيئا عما يمكن أن يصادفهم ، وإنما بدءوا بالاستيلاء على الواحات القريبة من الحدود واستقروا فيها ، ثم أخذوا ، بعد ذلك يتقدمون إلى الداخل ، فى أعداد

أخذت تتضاعف إلى أن بلغت أوجها فى الاضطهاد الثانى أيام « هادريان » فلحق الهاربون الجدد بمن سبقهم من إخوانهم ، الذين كانوا قد بلغوا « يثرب » ، بعد أن استولوا فى طريقهم على فدك وتبوك ومقنا وخيبر ووادى القرى وغيرها .

وغالبا ، فإن بنى النضير وبنى قريظة جاءوا فى الموجة الثانية ، أيام هادريان . ويذكر الاصفهانى أن هاتين القبيلتين ومعهم بنو يهدل جاءوا إلى يثرب أيام الاضطهاد دون أن يحدد أى اضطهاد ، ولكنه يقول : فلما قدم بنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل المدينة نزلوا الغابة ، فوجدوا أنها وبيه ، أى غير صحية ، فكرهوها وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم منزلا سواها ، فخرج حتى أتى العالية وهى بطحان ومهزور : واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر فرجع إليهم ، فقال : قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها على حرة يصب فيها واديان على تلاع عذبة ومدرة طيبة فى متأخر الحرة ومدافع الشرج ، فقال : تحول القوم إليها من منزلهم ذلك ، فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان ، وكانت لهم إبل نواعم ، فاتخذوها أموالا ، ونزلت بنو قريظة ويهدل ومن معهم على مهزور ، فكانت لهم تلاعة وما سقى من بعاث وسموات فكان ممن يسكن المدينة — حين نزل بها الأوس والخزرج — من قبائل بنى إسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زغورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص ، فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود ، فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود ، وكان بنو مرانة فى موضع بنى

حارثة ، ولهم كان الأطم الذى يقال له الخال . وكان معهم من غير بنى إسرائيل بطون من العرب منهم : بنو الحرمان حىّ من اليمن وبنو مرثد حىّ من بلى ، وبنو أنيف من بلى أيضا ، وبنو معاوية حىّ من بنى سليم ثم من بنى الحارث بن بهثة ، وبنو الشظية حىّ من غسان .

هذا ، غير اليهود الذين أقاموا فى المستوطنات الأخرى ، ومنها خيبر وفدك ومقنا وتبوك ووادى القرى . مما يدل على أن عددهم كان كبيرا .

وترجح الموسوعة العربية الميسرة أن تكون القبيلة اليهودية التى اسمها بنو قينقاع هى.أول القبائل اليهودية وطليعتها فى غزو يثرب ، ونقول الموسوعة : إن هذه القبيلة لعبت دورا بارزا فى هجرة اليهود ، ذلك أن اسمها أطلق فى تاريخ متأخر على أحد الأسواق الرئيسية بالحى العربى ، ولكن بالتدريج أصبحت قريظة والنضير القبائل الرئيسية فى صفوف يهود المدينة . .

أما عن الكيفية التى دخل بها اليهود إلى الحجاز حيث أقاموا مستوطناتهم فإنه على الرغم من عدم وجود ذكر لها فى المصادر اليهودية ، وأيضا فى المصادر العربية ، غير أنه من السهل تصور كيفية دخولهم ، وذلك فى ضوء ماذكرته التوراة من توصيات لهم بشأن مايجب عليهم أن يفعلوه بالشعوب والقبائل التى يوقعها سوء طالعها فى طريق من كان مثلهم جبانا ، هذا إذا أخذنا بِعَيْن الاعتبار كراهيتهم المتأصلة للعرب وحقدهم عليهم . ومن تلك الوصايا أو التعاليم : « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن

أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك ، بل عملت معك حربا فحاصِرْها . وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما (٢٢)

وعلى خلاف عادة اليهود فى عصيان الله فى معظم ما أمرهم به ، نراهم يلتزمون ـــ وبدقة متناهية ـــ بما يزعمون أنه أمرهم به من إبادة الشعوب . ولْنَرَ ماذا فعلوا بمدينة بائسة اسمها عاى سقطت فى أيديهم « وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان « عاى » فى الحقل فى البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعا بحد السيف حتى فنوا أن جميع إسرائيل رجع إلى عاى وضربوها بحد السيف ، فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر ألفا ، جميع أهل عاى (٢٣) .

وفى هجومهم على مديان قالت التوراة تصف مافعلوه « فتجندوا على مديان ، كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر ، وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم .. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع

---

(٢٢) تثنية ، الإصحاح ٢٠ الفقرات من ١١ إلى ١٨

(٢٣) يشوع ، الإصحاح ٨ ، فقرة ٢٤

بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم ، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم أتوا إلى موسى والعازار الكاهن وإلى جماعة بنى إسرائيل بالسبى والنهب والغنيمة إلى المحلة إلى عربات موآب التى على أردن أريحا [٢٤].

وهكذا وجد السكان العرب الذين كانوا يقيمون فى الواحات التى اقتحمها اليهود أنفسهم هدفا لهجوم كاسح شرس لم يبق ولم يذر ، قضى على الجميع من رجال ونساء وأطفال ودمر المساكن وأحرق الأسواق . ولم لا ؟ أليس هذا ماأوصتهم به التوراة ؟

وإذا كان قد حدث ، وترك اليهود بعض السكان أحياء ، فإن السبب فى ذلك كان حاجتهم إلى من يعمل لهم دون مقابل أو بمقابل ضئيل للغاية ، فهم ليسوا أكثر من عبيد يسخرونهم لأداء أشق الأعمال ؛ لأنهم ، أى اليهود ، سادة العالم ، والشعوب كلها عبيد لهم « لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى تكون له شعبا خاصًّا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » [٢٥].

وكما قلنا ، فإنهم بدءوا بأقرب الناطق إلى فلسطين مثل « مقنا » و « فدك » و « تبوك » ثم انتقلوا إلى « تيماء » فخيبر فوادى القرى لينتهوا إلى « يثرب » . وفى هذه المناطق أقاموا الحصون القوية ؛ ليحتموا بها من هجمات البدو الذين كانوا يقيمون فى الجوار ، وليس

---

(٢٤) العدد ، الإصحاح ٣١ ، الفقرات من ٧ إلى ١٢

(٢٥) تثنية ، الإصحاح ١٤ ، فقرة ٢

صحيحا ماذكرته الموسوعة الإسلامية الميسرة من أن اليهود لم يكونوا أول من أقام الحصون فى هذه المناطق ، وما استنتجته من أن السكان الذين كانوا هناك قبل ذلك لم يكونوا بَدْواً بحتا ، ولا ماذكره المستشرق المتعصب « لامنس » من أن تلك الحصون بنيت على نحو أمثالها فى اليمن . ذلك لأن عرب الحجاز ، فى الجاهلية ، لم يعرفوا من وسائل الحماية غير الأسوار يقيمونها حول المدن القليلة التى كانوا يقيمون بها ، وذلك على خلاف عرب اليمن الذين كانوا قد عرفوا الحصون بالإضافة إلى الأسوار ، والمعروف أن عرب اليمن لم يهاجروا إلى الشمال وإلى الحجاز على وجه الدقة إلا فى القرن الخامس الميلادى ، حيث يحتمل أن يكونوا قد أخذوا معهم فكرة الحصون الصغيرة التى تكلم عنها « لامنس » . أما اليهود فقد جاءوا من بلاد استخدمت الحصون منذ زمن بعيد ، بل إن اليهود أنفسهم كان لهم الكثير من الحصون فى المناطق التى تسلطوا عليها من فلسطين ، فليس غريبا أن يقيموا مثلها فى الحجاز ، وأن يجعلوها من القوة بحيث نصمد فى وجه أى هجوم يشنه البدو ، أصحاب البلاد الأصليون .

ولا تعرف إلى الآن ملابسات اعتناق بعض العرب الديانة اليهودية ، فالمعروف أن اليهود يعتبرون الموسوية حكرا عليهم لا يجوز أن يعتنقها غيرهم فهم « شعب الله المختار » فكيف سمحوا لأولئك باعتناق اليهودية ؟ ولكن الثابت أن أعدادا غير محددة منهم تهودوا ، ومن هنا جاء الخلط بين من كانوا يهودا خُلّصا ومن كانوا غير ذلك ، فظهر فيما بعد خلاف بشأن أصل القبائل اليهودية . فهناك من يرى أنهم يهود خلص ، وهناك من يرى خلاف ذلك ، وأنهم ، وبالذات

قريظة والنضير ، فخذان من قبيلة جذام العربية تهودوا . وهو ماينفيه المستشرق « نولدكه » . وإن كان قد تأكد من الناحية التاريخية أنه كان هناك كثير من العرب الذين تهودوا . ومن الذين يرون أن الغالبية العظمى من يهود الحجاز أصلهم عرب المستشرق الروسى « بلياييف » الذى دلل على ذلك بأن بعضهم أجاد الشعر فى الجاهلية ، بل ونظمه ، كما أن تنظيمهم القبلى والعشائرى لا يختلف عن التنظيم العربى .

ولكن هذا الذى ذهب إليه « بلياييف » ليس صحيحا ، فليس هناك شك فى أن بعض العرب اعتنقوا اليهودية لأسباب مختلفة منها رغبتهم فى التقرب إلى اليهود باعتبارهم سادة ، ومنها أيضا ضيق البعض بعبادة الأوثان واقتناعهم بفكرة الإله الواحد التى تقوم عليها اليهودية وهؤلاء وأولئك كان عددهم قليلا .

ولكن الراجح أن قريظة والنضير وبنو قينقاع هم من اليهود الخلص ، فقد كان يطلق على القبيلتين الأوليين « الكاهنان » مما يبين أن اليهود كانوا يعرفون نسلهم ويشددون على تسلسلهم ، ونرى الشىء نفسه من أن صفية النضيرية التى تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم توصف بأنها من آل هارون ، وهو ماذكره ابن سعد فى طبقاته . كذلك فإن القرآن الكريم خاطب اليهود على أنهم بنو إسرائيل ، مما يوحى بأكبر قدر من الوضوح بأنه كان يعتبرهم السلالة الصحيحة للإسرائيليين القدماء ، وعلى ذلك لابد أنه كان هناك إلى جانب العرب الذين تهودوا ، سلالة من اليهود بالمعنى الصحيح ،

والواضح فى الحقيقة أنه لولا وجود سلالة كهذه لما كان هناك أقوام اعتنقوا اليهودية .

كذلك فقد حرص بعض المؤرخين المسلمين على وصف اليهود باعتبارهم من أسباط بنى إسرائيل ، فابن كثير يقول عن بنى قريظة إنهم من بعض أسباط بنى إسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما . وهو المتيقن بالنسبة ليهود خيبر أيضا ، فقد كانوا يتكلمون العبرية فيما بينهم ، فضلا عن العربية التى كانوا يتكلمون بها مع العرب ، أو أمامهم ، وذلك على خلاف العرب المتهودين الذين لم يكونوا يعرفون العبرية . وكان عدد قليل من العرب الذين لم يتهودوا يتكلمون العبرية منهم عبد الله بن عتيك قائد المجموعة الفدائية التى تطوعت لقتل أبى رافع زعيم خيبر ، وهو مايسر له الدخول إلى الحصن للقيام بمهمته .

كذلك فإن اليهود كانوا يكتبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبرية ، وليس بالعربية ، فكان يرد عليهم بالعبرية أيضا . فقد أخرج الترمذى عن زيد بن ثابت أنه قال : أمرنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم ــ أن أتعلم كتاب يهود ، وقال : وإنى والله ماآمن يهود على كتابى . قال فما مر بى نصف شهر حتى تعلمته له قال : فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم [٢٦]. وهذا دليل آخر على أنهم كانوا يهودا ، ولم يكونوا عربا تهودوا .

---

(٢٦) جامع الترمذى ــ باب فى تعليم السريانية من أبواب الاستئذان والأدب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما يهود اليمن ، فإن الثابت أنهم عرب تهودوا . وتذكر الروايات العربية وكذلك المدونات اليونانية والرومانية والحبشية القديمة أن ملكا من ملوك حمير اسمه « تبان أسعد أبو كرب » مرّ فى إحدى غزواته بيثرب ، فجاءه حبران من أحبار اليهود فتكلما معه ، فأعجب بهما واتبع دينهما ، وأخذهما معه إلى اليمن ودعا قومه إلى اعتناق اليهودية فأجابوه ، وأن ذلك كان على مايظن فى القرن الخامس الميلادى . ويفسر البعض اعتناق عرب اليمن لليهودية بأنه كان نوعا من التحدى للدولة الأكسومية فى الحبشة التى كانت تساند البيزنطيين ، الذين كانوا بدورهم يساندون سكان واحة نجران الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية ، وأخذوا يعملون على نشر النفوذ البيزنطى ، واستطاعوا بواسطة الأحباش وبمعونتهم أن يضمنوا للتجار البيزنطيين وبحارة السفن الأمان فى طريقهم إلى الهند .

ولكن لِجَواد على رأى مخالف لما قيل من أن أسعد كامل أبو كرب اصطحب حبرين يهوديين ، ويقول : إنه ليس هناك دليل على أنه أول من تهود من ملوك اليمن ، وإنما الثابت أن هذا الملك كان يتعبد لإله يسمى ذو سموت أو إله السماء .

كذلك فإن الدكتور حسين مؤنس يقول فى تعليقه على كتاب العرب قبل الإسلام لجورجى زيدان : إنه لم يرد فيما ذكره مؤرخو الرومان أن ملك حمير ـــ عندما غزا الأحباش اليمن كان يهوديا وإن بروكوبيوس اكتفى بالقول بأن النجاشى كان نصرانيا ، وإنه بلغه أن الحميريين كانوا يضطهدون النصارى ويعذبونهم ؛ ولذلك أرسل

أسطولا استولى على أرض حمير وأقام عليها ملكا حميريا نصرانيا ، وذكر أن بعض الحميريين كانوا على اليهودية ، أما بقيتهم فكانوا وثنيين على مذهب الهلينيين . أما الرواية الحبشية فتذهب إلى أن معظم أهل سبأ كانوا وثنيين ، وأن بعضهم كان يهوديا ، وأن اليهودية دخلت اليمن بعد تشتت اليهود عقب قضاء الرومان على دولة إسرائيل ، وهدم الإمبراطور طيطوس لمعبد سليمان فى أورشليم . والمفهوم أن اليهودية دخلت اليمن عن طريق الحجاز .

وبدخول اليهودية إلى اليمن بدأ النزاع بين اليهود والمسيحيين ، ثم ما لبث أن اشتد وأخذ كلا الفريقين يكيد للآخر ، ومما ضاعف من كراهية اليهود للنصارى ماكان يصل إلى أسماعهم من أخبار الاضطهاد الذى أنزله الرومان بإخوانهم فى مصر والشام ، إلى أن كان عهد الملك « ذى نواس » فبلغ اضطهاد النصارى أشده وتمثل فى حادثة الأخدود التى ذكرها القرآن الكريم ، حيث وضع هذا الملك النصارى فى أخدود أشعل فيه النار فأحرقهم . ودفعت هذه الحادثة الأحباش إلى غزو اليمن بحجة الدفاع عن النصارى ، فقضوا على الدولة الحميرية ، وضربوا اليهود ضربة شديدة حتى أفنوهم ، أو كادوا .

وفضلا عن الحجاز واليمن فقد كان هناك يهود فى العراق ممن تخلفوا بعد أن سمح قورش لليهود بالعودة إلى فلسطين عقب سقوط بابل ، وقد انضم إلى هؤلاء الذين تخلفوا آخرون ممن فروا من الاضطهاد الرومانى . وكما هو معروف عن اليهود فإن جماعاتهم هذه كلها كانت

على اتصال ببعضها البعض ، فلم يكن يهود يثرب معزولين عن يهود تيماء أو خيبر ، ولا هؤلاء كانوا منقطعين عن يهود العراق ومصر والشام . وقد يتساءل البعض عن السبب الذى جعل اليهود يختارون مناطق مثل وادى القرى ويثرب وتيماء وتبوك ومقنا فى الحجاز للإقامة فيها دون غيرها ، كما قد يتساءلون عما إذا كانت هذه الأماكن قد عرفت فى التاريخ قبل أن ينتقل اليهود إليها أم أنهم هم الذين أدخلوها التاريخ وجعلوا لها أهمية ، وللإجابة عن هذه التساؤلات نبدأ بيثرب ، ثم نتبعها بالمناطق الأخرى .

يثرب ، أو المدينـــة :

اختلفت الآراء بشأن أصل اسم يثرب ، ومن هذه الآراء ماقاله المسعودى فى مروج الذهب أن يثرب الذى أطلق على المدينة قديما أصله اسم رجل يدعى يثرب بن قاتبة بن مهليل بن إرم بن عبيل ، نزل بالمدينة هو وولده ومن تبعه ، فسميت به يثرب ، فهلك هؤلاء أيضا ببعض غوائل الدهر وآفاته . أما ابن منظور فله رأى آخر ، وهو أن يثرب من ثرب ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى أن يقال للمدينة يثرب ، وسماها طيبة ، كأنه كره ثرب ؛ لأنه فساد عند العرب . وسواء كان أصل الاسم هو هذا أو ذاك ، فإن الثابت فى الحالين أن العرب هم أول من أقام فى هذه المنطقة وعمرها وأطلقوا عليها الاسم الذى عرفها به الناس ، وهذا منطقى ؛ فهى تقع فى بلادهم ، فى حين أن اليهود طرءوا عليها فى زمن لاحق .

أما لماذا استوطن اليهود يثرب فلأنها تقع بواحة وفيرة المياه ، يزرع بها الكثير من الفواكه والحبوب ، فضلا عن موقعها الاستراتيجى الهام ، فهى تقوم فى سهل ينحدر طفيفا نحو الشمال ، ويحدها من الشمال والغرب جبل أحد وجبل عير ، على بعد حوالى أربعة أميال ، وهما نتوءان خارجيان من السلسلة التى يتكون منها الحد الفاصل بين مرتفعات بلاد العرب والأرض الساحلية المنخفضة (تهامة) .

ويحد السهل من الغرب والشرق حرتان [٢٧]أو لابتان وهما مناطق جرداء مفروشة بالبازلت الأسود ، ولكن الحرتان الشرقيتان تقعان على مسافة أبعد ، وبينهما وبين المدينة قطع أوفر خصبا ، بحيث إن الحد الشرقى للسهل يتكون فى الحقيقة من صف من تلال سوداء منفخضة ، وفى الجنوب يمتد السهل إلى أبعد ما يصل إليه البصر .

والصورة التى يكونها المرء فى خياله عند قراءته لما كتبه المؤرخون وأصحاب كتب السيرة تظهر فيها المدينة (يثرب) كما لو كانت أحياء يقيم اليهود فى بعضها ، ويقيم العرب فى البعض الآخر . وربما ساعد على رسم الصورة على هذا النحو ماهو شائع اليوم من إطلاق وصف الحى على أجزاء من المدن لا يفصلها عن بعضها سوى طريق أو حتى حارة ضيقة . فى حين أن الحال كان خلاف ذلك فى المدينة (يثرب) ، التى كانت أحياؤها منفصلة بعضها عن بعض بما يصل إلى ثلاثة أميال وأحيانا أكثر من ذلك .

---

(٢٧) الحرار : جمع حرة ، والحرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنما احترقت . ويقول الجيولوجيون إنها احترقت بفعل البراكين .

ومما ذكرته الموسوعة الإسلامية الميسرة أن المدينة لم تكن منذ البداية الأولى بلدة نظامية ، وإنما كانت مجموعة من البيوت والأكواخ تحيط بها البساتين والحقول المزروعة ، وكان سكانها ممن يشتغلون بالزراعة ؛ ولهذا أطلق عليهم الأعراب اسم « النبطة » من قبيل الازدراء . هذه المستوطنات المتفرقة لم تصبح تجمعات على هيئة مدينة إلا بالتدريج ، وإن امتدت برغم ذلك نحو الشمال مسافة أبعد مما وصلت إليه البلدة المتأخرة .

والمدينة التى قامت بهذه الطريقة لم يكن بها سور ، بحيث إن وسائل الدفاع عنها كانت أحراشا كثيفة من أشجار النخيل والبساتين التى تحيط بالبيوت . وكانت أقل كثافة سكانية على الجانبين الشمالى والغربى ؛ لهذا كانا أكثر الأجزاء تعرضا لهجمات الأعداء . وكانت الحصون الصغيرة التى كان العرب يسمونها أطما وجمعها آطام ، أو أجما والجمع آجام ، التى أقيمت بأعداد كبيرة ــ تشكل بديلا عن السور ، وكان فى إمكان السكان أن يلجئوا إليها فى أوقات المتاعب

وهناك خلاف بشأن التاريخ الذى نشأت فيه يثرب ، ولكن الراجح أن أول من نزل بمنطقة يثرب هى قبيلة « عبيل » العربية التى أهلكها السيل المسمى بسيل « الجحفة » وعبيل يعود أصلها إلى « العماليق » و « جرهم الأولى » . والعماليق من العرب العاربة الذين يسبقون فى الوجود العرب المستعربة ، أى أبناء إسماعيل عليه السلام وأحفاده . وعلى ذلك فإن تاريخ يثرب يرجع إلى بداية الألف الثانى قبل الميلاد ، أى إلى ماقبل ميلاد موسى عليه السلام بأكثر من

خمسمائة عام . ويقول الأستاذ أمين مدنى : إن العماليق الذين سكنوا يثرب كانوا خليطا من بطون « عاد » و « ثمود » وخلفائهم من قبائل « لحيان » و « دادان » ، وغيرهما من القبائل فى شمال الحجاز .

ومما قاله الأصفهانى فى هذا الشأن ، أن ساكنى المدينة فى أول الدهر ، قبل بنى إسرائيل ـــ كانوا قوما من الأمم الماضية يقال لهم العماليق ، وكانوا قد تفرقوا فى البلاد ، وكانوا أهل عز وبغى شديد ، فكان ساكنو المدينة منهم بنو هف ، وبنو سعد ، وبنو الأزرق ، وبنو مطروق . وكان ملك الحجاز منهم رجلاً يقال له الأرقم ، ينزل ما بين تيماء إلى فدك ، وكانوا قد ملئوا المدينة ، ولهم بها نخل كثير وزروع ، ثم يذكر الأصفهانى قصة الجيش الذى بعث به موسى بن عمران للقضاء على العماليق .

فإذا كان اليهود قد جاءوا إلى الحجاز فى القرن الأول أو الثانى الميلادى وهو الراجح على ماذكرنا سابقا ـــ فمعنى ذلك أنهم دخلوا إلى يثرب وفيها اللحيانيون ، حيث ذكر الكاتب الرومانى « بيلنوس » أن بطونا منهم كانت منتشرة بين ينبع وأيلة ، وفى داخل البلاد وفى العلا وهضبات خيبر ، وأنهم كانوا فى القرن الأول الميلادى خاضعين للأنباط .

ومعنى هذا أن العرب الذين كانو يقيمون فى يثرب عندما غزاها اليهود كانوا من اللحيانيين الذين كان عددهم قليلا للغاية ، وربما يكون السبب أن اليهود قتلوا منهم أعدادا كبيرة لكى تكون لهم الغلبة . ولقد ظلت لهم الغلبة حتى بعد أن جاء الأوس والخزرج إلى

يثرب قادمين من اليمن فى أعقاب تصدع سد مأرب .

وتاريخ انتقال الأوس والخزرج إلى يثرب موضع خلاف هو الآخر ، فهناك رأى يربط بين تصدع السد وهجرة الأوس والخزرج ، وعلى ذلك تكون هذه الهجرة قد حدثت فى عام ٥٢٠ ميلادية وهو تاريخ انهيار السد ، وهو رأى جواد على . أما الدكتور حسن إبراهيم فيقول : إن السد انهار سنة ٥٦٥ م . وهناك رأى آخر يذهب إلى أن هذه الهجرة حدثت قبل ذلك بأكثر من نصف قرن ، أى أنهم لايربطونها بانهيار السد وإنما بتصدعه ، ويستند أصحاب هذا الرأى إلى ما ورد فى رواية « ابن إسحاق » التى نقلها لنا « ابن هشام » والتى تقول : إن الذين غزاهم « تبان أسعد » التبعى فى المدينة هم الأوس والخزرج . ولما كانت هذه الغزوة قد حدثت بين عام ٤٠٠م وعام ٤٢٠م فمعنى هذا أن الأوس والخزرج كانوا يقيمون فى يثرب قبل عام ٤٠٠ م وهو العصر الذى عاش فيه « تبان أسعد » . وللأستاذ أحمد أمين رأى ، وهو أن هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب حدثت حوالى عام ٣٠٠ م .

ويصف الأصفهانى هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب فيقول : فلما أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب ، وهم الأزد ، قام رائدهم فقال ... ومن كان منكم يريد الراسخات فى الوحل ، المطعمات فى المحل فليلحق بيثرب ذات النخل ، فكان الذين نزلوها الأوس والخزرج ، فلما توجهوا إلى المدينة ووردوها نزلوا فى صرار (موضع على قرب من المدينة) ثم تفرقوا وكان منهم من لجأ إلى عفاء (يباب)

من أرض لا ساكن فيه ، فنزلوا به ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها ، فكانوا مع أهلها ، فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم التى نزلوها بالمدينة فى جهد وضيق من المعاش ، ليسوا بأصحاب إبل ولا شاة ؛ لأن المدينة ليست بلاد نَعَمٍ، وليسوا بأصحاب نخل ولا زرع، وليس للرجل منهم إلا الأعذاق اليسيرة ، والمزرعة يستخرجها من أرض موات ، والأموال لليهود ، فلبثت الأوس والخزرج بذلك حينا .

وكانت قريظة والنضير تتيهان على العرب ، بل والقبائل اليهودية الأخرى بنسبهما إلى الكاهنين ، وهما هارون والعازار ، وهذا يعنى المكانة الدينية الرفيعة وفى نفس الوقت التعصب المقيت . وهذا كعب ابن سعد القرظى يزهو ويفاخر بنسبه إلى الكاهنين فيقول :

بالكاهنين قررتم فى دياركم جما ثواكم ومن أجلاكم جَدُبا

وسواء أكانت هجرة الأوس والخزرج فى هذا التاريخ أو فى ذاك فإن الثابت أنهم حين نزلوا يثرب لم يكونوا أهل نَعَمٍ وشاء وخيل وأموال ، وإنما كان ذلك لليهود فعاشوا بين اليهود وبالضواحى والقرى فى شظف من العيش وهوان وذل ؛ إذ تحكم اليهود فيهم وحكموهم . وأصبح الأوس والخزرج موالى لهم . وكان اليهود يستمدون قوة إضافية من الفرس ، حيث إن هذا الجزء من شمال بلاد العرب كان آنذاك تحت حكمهم ، وذلك تمشيا مع السياسة اليهودية المعتادة فى الإبقاء على علاقات ودية مع فارس بعد ماأنزله بهم الرومان من اضطهاد وتعذيب .

وهكذا عامل اليهود العرب أسوأ معاملة ، فلم يكتفوا بالاستيلاء على أراضيهم وسلب أموالهم والتضييق عليهم فى العيش وإلزامهم بأداء الخراج ، وإرغامهم على السكنى فى مناطق مجدبة ، بل أضافوا إلى ذلك الاعتداء على بناتهم . ويروى ياقوت فى معجمه قصة الملك اليهودى المسمى بـ (الفطيون) فيقول :

وكانت اليهود والأوس والخزرج يدينون له ، وكانت له فيهم سنة ألا تزوج امرأة منهم إلا أُدخِلت عليه قبل زوجها حتى يكون هو الذى يفتضها ، إلى أن زوجت أخت لمالك بن العجلان بن زيد السالمى الخزرجى ، فلما كانت الليلة التى تُهدَى فيها إلى زوجها خرجت على مجلس قومها كاشفة عن ساقيها وأخوها فى المجلس ، فقال لها قد جئت بسوءة بخروجك على قومك وقد كشفت عن ساقيك قالت : الذى يراد بى الليلة أعظم من ذلك ؛ لأننى أدخل على غير زوجى ، ثم دخلت إلى منزلها ، فدخل إليها أخوها وقد أرمضه قولها فقال لها : هل عندك من خبر ؟ قالت : نعم ، فماذا ؟ قال : أدخل معك فى جملة النساء على الفطيون ، فإذا خرجنَ مِن عندك ودخل عليك ضربته بالسيف حتى يبرد ، قالت : افعل ، فتزيا بزى النساء وراح معها ، فلما خرج النساء من عندها دخل الفطيون عليها ، فشد مالك بن العجلان عليه بالسيف وضربه حتى قتله ، وخرج هاربا حتى قدم الشام ، فدخل على ملك من ملوك غسان يقال له أبو جبيلة ، وفى بعض الروايات أنه قصد اليمن إلى تبع الأصغر بن حسان فشكا إليه ماكان من الفطيون وماكان يعمل فى نسائهم ، وذكر له أنه قتله وهرب ، وأنه لا يستطيع الرجوع خوفا من اليهود ، فعاهده أبو

جبيلة ألا يقرب امرأة ولا يمس طيبا ولا يشرب خمرا حتى يسير إلى المدينة ويذل من بها من اليهود ، وأقبل سائرا من الشام فى جمع كثير مظهرا أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة ونزل بذى حرض ، ثم أرسل إلى الأوس والخزرج أنه على المكر باليهود عازم على قتل رؤسائهم ، وأنه يخشى متى علموا بذلك أن يتحصنوا فى آطامهم (حصونهم) وأمرهم بكتمان ما أسره إليهم ، ثم أرسل إلى وجوه اليهود أن يحضروا طعامه ليحسن إليهم ويصلهم ، فأتاه وجوههم وأشرافهم ومع كل واحد منهم خاصته وحشمه ، فلما تكاملوا أدخلهم فى خيامه ثم قتلهم عن آخرهم ، فصارت الأوس والخزرج من يومئذ أعز أهل المدينة وقمعوا اليهود وسار ذكرهم وصار لهم الأموال والآطام .

وكما كان إذلال اليهود للعرب شديدا وقاسيا ، فإن فرحتهم بهزيمتهم كانت شديدة ، وكعادتنا الآن عندما نحرز نصرا ، مهما كان ضئيلا ، نغنى ونهلل ، فكذلك فعل الأوس والخزرج ، فقد تبارى شعراؤهم فى نظم الأشعار التى تعبر عن الزهو والفخر بما فعله أبو جبيلة . فقال الرمق وهو عبيد بن سالم بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف من الخزرج يمدح أبا جبيلة الغسانى :

لم يقض دينك فى الحسا ... ن وقد غنيت وقد غنينا
الراشقات المرشقا ... ت الجازيات بما جزينا
أمثال غزلان الصرا ... م يأتزرن ويرتدينا
الربط والديباج ... والزرد المضاعف والبرينا
وأبو جبيلة خير من ... يمشى وأوفاهم يمينا

وقال الصامت بن أصرم النوفلى يذكر قتل أبى جبيلة لليهود :

سائل قريظة من يقسم سبيها [٢٨] يوم العريض ومن أفاء المغنما
جاءتهم الملحاء يخفق ظلها وكتيبة خشناء تدعو أسلما
عمى الذى جلب الهمام لقومه حتى أحل على اليهود الصيلما

أما اليهود فقد أخذوا يبكون عزهم الذى ولى أوكاد ويرثون قتلاهم ، وها هى امرأة منهم تدعى سارة القرظية قالت فى رثاء من قتلهم أبو جبيلة :

بنفسى أمة لم تغن شيئا بذى حرض تعفيها الرياح
كهول من قريظة أتلفتها سيوف الخزرجية والرماح
رزئنا والرزية ذات ثقل يمر لأهلها الماء القراح
ولو أربو بأمرهم لجالت هنالك دونهم جأوا رداح

ثم انصرف أبو جبيلة راجعا إلى الشام ، وقد ذلل الحجاز والمدينة للأوس والخزرج ، فعندها تفرقوا فى عالية المدينة وسافلتها ، فكان منهم من جاء إلى القرى العامرة فأقام مع أهلها قاهرا لهم ، ومنهم من جاء إلى عفا من الأرض لا مساكن فيه فبنى فيه ونزل ، ثم اتخذوا بعد ذلك القصور والأموال والآطام . ويقول الدكتور حسن إبراهيم : إن ذلك كان فى نهاية القرن الخامس الميلادى . وهكذا كانت المرأة العربية الحريصة على عفتها من أن يدنسها يهودى ـــ السبب فيما نزل

---

(٢٨) يعنى بقوله : « من يقسم سبيها » نسوة سباهن أبو جبيلة من بنى قريظة ، وكان رآهن فأعجبنه ، وأعطى مالك بن العجلان منهن امرأة .

باليهود ، وأدى إلى القضاء على بعض قوتهم ولكن ليس كلها .

قال أبو هلال أحد بنى المعلى : إنهم ، أى العرب ، أقاموا زمنا بعد ما صنع أبو جبيلة ، ويهود تعترض عليهم ، وتناوئهم ، فقال مالك بن العجلان لقومه والله ماأثخنا يهوداً غلبة كما نريد ، فهل لكم أن أصنع لكم طعاما ، ثم أرسل فى مائة من أشراف من بقى من اليهود ، فإذا جاءونى فاقتلوهم جميعا ، فقالوا نفعل ، فلما جاءهم رسول مالك قالوا : والله لا نأتيهم أبدا ، وقد قتل أبو جبيلة منا من قتل ، فقال لهم مالك : إن ذلك كان على غير هوى منا ، وإنما أردنا أن نمحوه ، وتعلموا حالكم عندنا ، فأجابوه ، فجعل كلما دخل عليه رجل منهم أمر به مالك فقتل حتى قتل منهم بضعة وثمانين رجلا ، ثم إن رجلا منهم أقبل حتى قام على باب مالك فتسمع فلم يسمع صوتا فقال : أرى أسرع وِرْد وأبعد صدر (يريد أن من دخل لا يرجع) فرجع وحذر أصحابه الذين بقوا ، فلم يأت منهم أحد ، فقال رجل من اليهود لمالك بن العجلان :

فسفهت قيلة أحلامها ففيمن بقيت وفيمن تسود ؟

فقال مالك :

فإنى امرؤ من بنى سالم بـ ـن عوف وأنت امرؤ من يهود

قال : وصورت اليهود مالك بن العجلان فى بِيَعِهم وكنائسهم ، فكانوا يلعنونه كلما دخلوها . فقال مالك فى ذلك قوله :

تحامى اليهود بتلعائها تحامى الحمير بأبوالها
فماذا علىَّ بأن يلعنوا وتأتى المنايا بإذلالها

قال : فلما قتل مالك من يهود مَن قتل ذلوا ، وقل امتناعهم ، وخافوا خوفا شديدا ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض ، كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، ولكن يذهب اليهودى إلى جيرانه من العرب يحتمى بهم .

وللأسف فإن ماكان يفعله الفطيون ظل سبة فى جبين سكان المدينة (يثرب) حتى بعد أن ساد الإسلام بمدة طويلة . ففى هجاء ابن قنبز لمسلم بن الوليد ردا على هجاء هذا لقريش وفخره بالأنصار قال ابن قنبر فى سكان المدينة :

فعزوا وقد كانوا وفطيون فيهمُ ... من الذل فى باب من العز مبهم
يسومهم الفطيون مالا يسامه ... كريم ومن لا ينكر الظلم يظلم

وقال فى قصيدة أخرى :

فاخر الغر من قريش بإخوا ... ن خنازير يثرب والقرود
يتولى بنى النضير ويدعو ... بهم الفخر من مكان بعيد
وبنى الأوس والخزارج أهل الذ ... ل فى سالف الزمان التليد
إذ رضوا بافتضاض فطيون منهم ... كل بكر ريا الروادف رود
وبنوعمها شهود لما يفـ ... ـعل فطيون قبحوا من شهود
خلف باب الفطيون والبعل منهم ... لا بذى غيرة ولا بنجيد

فإذا ماقضى اليهودى منها ... نحبه قنعوا بخزى جديد

وإذا كان اليهود قد فقدوا الملك ، إلا أنهم لم يفقدوا غيره من عناصر القوة ؛ فقد احتفظوا بكل أراضى المدينة الخصبة تقريبا ملكا

لهم ، كما كانت التجارة فى أيديهم ، وكذلك الصناعات القليلة ، ومن بينها صناعة الأسلحة مثل السيوف والخناجر ، وصياغة الذهب التى كانت صناعتهم الرئيسية ، فضلا عن المال الذى كانوا يقرضونه للعرب المحتاجين بالربا الفاحش . ولعل ما قاله أحد زعماء الخزرج لقومه يبين لنا سوء الأوضاع التى كان العرب يعيشون فيها . فقد قال عمرو بن النعمان البياضى لأهله : إن أباكم أنزلكم منزل سوء بين سبخة (أرض ذات نز وملح) ومفازة (الفلاة لا ماء فيها) وإنه والله لايمس رأسى غسل حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل . وفى هذا القول دليل على أن العرب كانوا محرومين من الماء العذب وكريم النخل فضلا عن عدم صلاحية البيئة للإقامة .

وعمرو بن النعمان هو ثانى عربى بعد مالك بن العجلان يدرك أن اليهود دخلاء مغتصبون ينعمون بما اغتصبوه من العرب من أرض وثمار ، فأقسم أن يمنع ذلك ، كما سبق لمالك أن منع الفطيون من اغتصاب النساء العربيات . هذا على الرغم من أن العرب كانوا قد حسنوا ظروفهم بعض الشىء فى أعقاب هزيمة أبو جبيلة لليهود ، فقد أقام الخزرج فى مركز البلد الذى تشغله المدينة « الحديثة » وإلى الغرب والجنوب منهم كانت تعيش قبائل أخرى من الخزرج أيضا ، فى حين امتدت أرض الحارث إلى الشرق . أما الأوس ــ وكانوا يضمون أسرات عدة أيضا ــ فكانوا يقيمون فى جنوب وشرق إخوانهم . وكان بنو الحارث يفصلون أهل الشمال الشرقى عن أقربائهم .

أما اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة فقد كانوا يقيمون خارج المدينة فيما نسميه الآن « ضواحى » المدينة . فى مناطق ذات أهمية استراتيجية وطبيعة حاكمة . فبنو قريظة مثلا كانوا يقيمون على أميال من المدينة فى حصونهم القوية التى كانت تقع على ربوة تشرف على المدينة من الشرق ، وقريب منها تقع أراضيهم التى كانوا يزرعونها . وكانت حصون اليهود مغلقة فى وجه العرب يجهلون تماما مابداخلها من سلاح وعتاد ، كما أنه كان لديهم مقاتلون يتميزون بالقوة الجسمانية والمهارة فى استخدام السلاح . وكان العرب يهابونهم ، لا عن تجربة وخبرة ، فهم لم يخوضوا حربا ضدهم منفردين ، وإنما كان اليهود يحرصون على أن يكونوا مع أحد الفريقين ، الأوس أو الخزرج ، ضد الفريق الآخر ، وغالبا ماكانوا يختارون الفريق الأقوى ، حتى إذا انتصر نسبوا لأنفسهم الفضل فى انتصاره ، أما إذا هزم فإذا لم يلقوا عليه بالمسئولية عن الهزيمة ، فإنهم على الأقل يتقاسمونها معه ، وفى أغلب الأحوال فإنهم كانوا يتحاشون أن تلحق بهم خسائر ، أما المكاسب فإنهم كانوا أول من يبادر إلى قطف ثمارها . وحينما كان العرب يتوقفون عند حد معين ، طالما أنهم قد انتصروا فإنهم ، أى اليهود ، كانوا يصرون على المضى حتى النهاية ، فينكلون بالطرف الذى لحقت به الهزيمة ، يعملون فى فلوله التقتيل ، وينهبون المساكن ، ويسبون النساء ، أو يعتدون عليهن متظاهرين بالحماس للطرف الغالب وبالرغبة الشديدة فى الانتقام له .

وعلى الرغم من ضآلة المكاسب التى حققها العرب نتيجة لغزوة

أبى جبيلة لليهود ، فإن هؤلاء أبوا أن يرصحوا للأمر الواقع ويعترفوا للعرب بما استردوه من حقوق ضئيلة ، وإنما أخذوا يسعون لبث الفرقة بين العرب ، فيؤلبون الأوس على الخزرج ، ويحرضون الخزرج على الأوس ، ويقفون مع هؤلاء تارة ومع أولئك تارة أخرى ، وغرضهم الحيلولة دون زيادة قوة إحدى القبيلتين على حساب القبيلة الأخرى ، حتى لا تشكل خطرا عليهم ، وإنما السعى إلى إضعاف الجميع حتى يكونوا هم وحدهم الأقوياء ، فإذا سنحت لهم فرصة انتهزوها للانقضاض على الفريقين وإخضاعهما لسلطانهم مرة أخرى . ومن هنا كانت كثرة الوقائع بين الأوس والخزرج التى تكبد فيها الفريقان أفدح الخسائر ، فى الأرواح والممتلكات .

وفى حرب سمير التى نشبت بين الأوس والخزرج عقب زوال ملك اليهود بفضل مساعى مالك بن العجلان وجهود أبو جبيلة ، انضم يهود بنى قريظة وبنى النضير إلى الأوس ضد الخزرج الذين كان مالك بن العجلان منهم . وقد استمرت هذه الحرب عشرين عاما ، وانتهت بالصلح بين الجانبين . ثم بعد ذلك بذل اليهود تأييدهم للخزرج ضد الأوس ، وذلك فى الحرب التى نشبت بينهما بسبب قيام أحد اليهود بركل عربى فى مؤخرته ، وكان هذا العربى ضيفاً على أحد أشراف الأوس واسمه حاطب بن قيس ، فلما أصابته الركلة استغاث بمضيفه الذى أقبل مسرعا ، ولما علم بما فعله اليهودى ضربه بسيفه ضربة فلق بها هامته ، وهكذا قامت الحرب بين الأوس والخزرج ، وهزم الخزرج الأوس .

ولكن اليهود عادوا فانحازوا إلى الأوس مرة أخرى ، فهم لا يرغبون أن يروا فريقا من العرب يزداد قوة ؛ لما فى ذلك من خطر عليهم . فلما رأى الخزرج ذلك أنذروا اليهود وهددوهم إن هم استمروا فى مساندة الأوس ، فرد عليهم اليهود بما يتضمن الوعد بالكف عن نصرة الأوس ، ولكن الخزرج لم يكتفوا بذلك ، وطلبوا منهم أن يودعوا لديهم رهائن من أبنائهم لكى يضمنوا عدم مساعدتهم للأوس ، فبعثوا إليهم بأربعين غلاما منهم ، ففرقهم الخزرج فى دورهم ، ومكثوا بذلك مدة . ولكن حدث أن رجلا من الخزرج يدعى يزيد بن فسحم شرب يوما فسكر فتغنى بشعر يذكر فيه موضوع الرهائن ، وعرض باليهود قائلا :

هلم إلى الأحلاف إذْ رقَّ عظمهم ... وإذْ أصلحوا مالاً لجذمان ضائعا
إذا ماامرؤ منهم أساء عمارة ... بعثنا عليه من بنى العير جادعا
فأما الصريح منهم فتحملوا ... وأما اليهود فاتخذنا بضائعا
أخذنا من الأولى اليهود عصابة ... لغدرهم كانوا لدينا ودائعا
فذلوا لرهن عندنا فى حبالنا ... مصانعة يخشون منا القوارعا
وذاك بأنا حين نلقى عدونا ... نصول بضرب يترك العز خاشعا

فبلغ قوله قريظة والنضير فغضبوا ، وتوعد كعب بن الأشرف الخزرج ، وسعى فى تأليب الأوس عليهم ، فلما سمعت الخزرج بذلك قتلوا كل من عندهم من الرهن من أولاد قريظة والنضير . وعندئذ اجتمعت الأوس وقريظة والنضير على حرب الخزرج فاقتتلوا قتالا شديدا ، وسمى ذلك اليوم بيوم الفجار الثانى لقتل الغلمان ، ويقول

ابن الأثير : إن الخزرج إنما قتلوا الرهائن بسبب غدر اليهود فأحرى أن يسمى الفجار لغدر اليهود لا العرب .

أما آخر حرب بين الأوس والخزرج فتسمى يوم بعاث . وكان السبب فى وقوعها أن قريظة والنضير جددوا العهد مع الأوس على المؤازرة والتناصر ، واستحكم أمرهم وجدوا فى حربهم ، ودخل معهم قبائل من اليهود غير من ذكرنا ، فلما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت وراسلت حلفاؤها من أشجع وجهينة ، كذلك راسلت الأوس حلفاءها من مزينة ، ومكثوا أربعين يوما يتجهزون للحرب ، والتقوا ببعاث ، وهى من أعمال قريظة ، وتخلف عبد الله ابن أبى بن سلول فيمن تبعه من الخزرج . وفى أول الأمر انهزم الأوس ومعهم اليهود ، ثم مالبثت الدائرة أن دارت على الخزرج ، فقتل قائدهم ، ووضعت الأوس فيهم السلاح ، ولكن أحدهم صاح : يامعشر الأوس ، أحسنوا ولاتهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب ، فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم ، ولكن اليهود استمروا فى سلب الخزرج انتقاما وتشفيا .

وأقسم كعب بن أسد القرظى ليذلن عبد الله بن أبى ؛ ظنا منه أنه اشترك فى الحرب إلى جانب إخوانه الخزرج . ولم يكف إلا بعد أن ثبت له أن عبد الله بن أبى لم يشترك فى الحرب .

وكان يوم بعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ، فقد جاء الاسلام فجمع بينهما ووحد كلمتهما ، وضيَّع على اليهود

الفرصة نهائيا ، بل وأصبح المسلمون يحاسبونهم على أى إساءة تقع منهم فى حق الآخرين .

مستوطنة تيمـاء

أما المناطق الأخرى غير (يثرب) فإنها لم تكن تقل عنها خصوبة وقيمة من الناحية الاستراتيجية والموقع الاقتصادى ، ومنها تيماء التى ذكرت المراجع أنها تقع فى واحة كثيرة الماء فى شمالى الجزيرة العربية على مسيرة أربعة أيام إلى الجنوب من دومة الجندل ، ويقول المقدسى : إنها على مسيرة ثلاثة أيام من الحجر ، وأربعة أيام من وادى القرى ، وهى فى غور طوله ميلان ، وعرضه خمسمائة ياردة ، وكانت تيماء محطة هامة للقوافل . ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة : إن تيماء كانت ملتقى قوافل التجارة تغدو وتروح بين الجنوب والشمال وإن أهلها كانوا ماهرين فى الأعمال التجارية ، وإنهم دفعوا الجزية لتغلات بلاشر ؛ فدية ورغبة فى الاستمرار على نشاطهم التجارى بعد أن وقعت البلاد الشمالية تحت سيطرته . والسبب فى غزو تغلات بلاشر لتيماء أن سمسى ملكة عربيى انضمت إلى تحالف كبير فى عام ٧٣٢ ق.م ضم دولة سبأ وملك دمشق وواحة تيماء الهامة ، وقبائل أخرى قرب تيماء وديدان (العلاء) ضد تغلات بلاشر الثالث الذى كان يطمع فيما يعود على هذه المناطق من ثروة نتيجة لامتداد ماكان يسمى بـ (طريق البخور) خلالها ، وكان هذا الطريق يبدأ من البحر الأبيض عند غزة ، ومن دمشق عن طريق معان

وديدان ويثرب إلى رجمة (نجران) وسبأ ، فما كان منه إلا أن شن حربا عليها فأخضعها بما فيها تيماء .

ويزعم اليهود أن أشعياء تنبأ بما سيحدث للعرب فى تلك الحرب ، ففى الإصحاح ٢١ من سفر أشعياء يقول : « وحى من جهة بلاد العرب . فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين ياقوافل الددانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان واحة تيماء وافوا الهارب بخبزه . فإنهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب . فإنه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار وبقية عدد قسى أبطال بنى قيدار تقل لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم ».

وكانت اليهود تسمى العرب من أبناء إسماعيل باسم قيدار الذى قيل إنه أحد أبناء إسماعيل ، ونلاحظ كراهية أشعياء الشديدة لهم ، وسروره بما سيحيق بهم من هزيمة . وكان ذلك فى القرن الثامن قبل الميلاد .

كذلك غزا الملك نبونئد ملك بابل تيماء عام ٥٥٠ ق.م وحكمها ثمانى سنوات وأنفذ حملة وصلت إلى يثرب . وشيد قصرا ومعبدا فى تيماء وجعل منها مركزا لديانة عريقة فى القدم هى عبادة الإله سين رب القمر الآرامى .

وفى سنة ٣٧٥ ميلادية خضعت تيماء للملك الحبشى المدعو « عيزان » ولكن ذلك لم يدم طويلا ؛ إذْ مالبثت أن خضعت للفرس .

وكان شأن تيماء كشأن غيرها من الواحات العربية الخصبة التى نزح إليها اليهود من فلسطين أيام الاضطهاد الرومانى ، غير أن تيماء اجتذبت أعدادا أخرى من اليهود الذين كانوا يقيمون فى مناطق أخرى من الحجاز لاتتمتع بما كانت تتمتع به فنزحوا إليها وأقاموا فيها .

ويبدو أنهم كانوا مثل يهود المدينة (يثرب) يسيئون معاملة العرب ، وإن كان هؤلاء ـــ على مايبدو ـــ أقل حمية من إخوانهم عرب يثرب ، حيث اكتفوا بالشكوى ولا يحاولون أن يحطموا نير التسلط اليهودى ، وها هو أحدهم ينظم شعرا يعبر فيه عن معاناته هو وإخوانه من ظلم اليهود فيقول :

إلى الله أشكو ، لا إلى الناس ، أننى بتيماء تيماء اليهود غريب
وأنى بتهباب الرياح موكل طروب إذا هبت عَلَىَّ جنوب
وإن هب علوى الرياح وجدتنى كأنى لعلوى الرياح نسيب

فالرجل ، كما نلاحظ ، ضائع فى بلده بسبب تعنت اليهود واستغلالهم ووقاحتهم

وكما فعل يهود يثرب ، لما علموا ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعل يهود تيماء ، فقد ناصبوه العداء وارحوا يتآمرون مع بنى عمومتهم فى يثرب وخيبر ووادى القرى وقمنا وتبوك وفدك يريدون القضاء عليه ، ولكن شاءت إرادة العلى القدير أن يقضى عليهم ، وأن تخلص الحجاز واليمن وكل الجزيرة لأبنائها العرب كما ستخلص فلسطين إن شاء الله .

مستوطنة تبوك

وتبوك من الواحات العامرة التى استوطنها اليهود أيضا ، وهى تقع على مسيرة أربعة أيام من الحجر ، واثنى عشر يوما من يثرب ، وهى واقعة على نَشَزٍ فى سهل رملى وبها بئر صالح ، ومن الراجح أن يكون هو الوارد ذكره فى القرآن الكريم . وكانت تبوك أيام النبى صلى الله عليه وسلم على الحدود الشمالية لبلاد العرب وتبدأ بعدها حدود الدولة البيزنطية (دولة الروم) . وكان يهود تبوك يُنَكِّلُون بمن يقيم بين ظَهْرَانَيْهم من العرب ، فلما ظهر الإسلام أخذوا يتآمرون ضده مع بنى عمومتهم فى المستوطنات اليهودية الأخرى ، وظنوا أن وجود تبوك على مسافة بعيدة من يثرب وقربها من الحدود البيزنطية سوف يمنع المسلمين من غزوها وتأديبهم وكسر شوكتهم ، ولكن خاب فألهم ، فقد طالتهم أيدى المسلمين كما طالت بنى عمومتهم فى يثرب ثم فى خيبر ووادى القرى .

مستوطنات أخرى

وهناك ــ فضلا عما تقدم ذكره من مستوطنات لليهود ــ كثير من الواحات والأقاليم التى اغتصبوها من العرب ، منها أذرح ، ومقنا ، وبنى جنبه ، وبنى عريض ، وبنى غاريا ، والجرباء ، وفدك .

وأذرح كانت فى أطراف الشام من أعمال الشراة ، ثم من نواحى البلقاء . ويقول ياقوت : إن الوضاح قد أخطأ إذ قال إنها من فلسطين ، وإنما هى فى قبلى فلسطين من ناحية الشراة . وجاء فى

كتاب مسلم بن الحجاج أن بين أذرح والجرباء ، وهى مستوطنة يهودية أيضا ، ثلاثةَ أيام ، بينهما ميل واحد أو أقل ؛ لأن الواقف فى هذه ينظر هذه .

أما أذرعات التى نفى إليها الرسول صلى الله عليه وسلم بنى قينقاع ، فكانت تقع فى أطراف الشام بجوار أرض البلقاء وعمان ، ينسب إليها الخمر . ويقول ياقوت : إن العرب ذكرتها فى أشعارها ؛ لأنها لم تزل من بلادها فى الإسلام وقبله ، فقد قال امرؤ القيس :

ومثلك بيضاء العوارض طفلة لعوب تنسينى -إذا قمت- سربالى
تَنَوَّرْتُها من أذرعات وأهلها بيثرب ، أدنى دارها نظرٌ عالِ

يريد أن يقول ، أى ياقوت ، إنها لم تكن يهودية أبدا ، وإنما اغتصبها اليهود ، فلما استردها المسلمون عادت — كما كانت — عربية .